



صورة المرأة في أدب الرافعي

woman portrait in El Rafei litterature

حفيظة بشارف

جامعة سعيدة (الجزائر)

hafidabecharef169@gmail.com

المعلومات المقال	الملخص:
تاريخ الارسال: 04 جويلية 2020 تاريخ القبول: 14 اوت 2020 <u>الكلمات المفتاحية:</u> ✓ الرافعي ، ✓ المرأة ✓ صورة،	لم ينل الرافعي حظه من الدراسة رغم أنه واسع الفكر، محيط باللغة لاسيما من خلال مؤلفه "وحي القلم" الذي يكشف عن صور متعددة للمرأة برؤية فلسفية عميقة، حاولنا قراءتها من جوانب عديدة.
Article info	Abstract :
Received 04 July 2020 Accepted 14 August 2020 <u>Keywords:</u> ✓ women , ✓ figure, ✓ liberation	The of RAFEI'S literary works did n't get enough chance in study even his great ideology surrounded with a powerful language precisely in his "waho Alkam " witch figure out various deep-and philosophical vision of women that we tried to read it from different sides.

. مقدمة:

إن المتتبع للحركة النقدية في الثقافة العربية، يلاحظ ذلك الخفوت في تناول أدب الرافعي بالدراسة والتحليل إذا ما قورن بمن عاصره من أمثال العقاد وطه حسين وسلامة موسى وتوفيق الحكيم .. وغيرهم . رغم الثراء الفكري والغوي و تعدد مصنفاته في شتى صروف الأدب من شعر و نثر و مقالة و قصة ، ودراسات لا تحصى و لا تعد وربما كان هذا راجع للتوجه الإسلامي و الموروث العربي الأصيل الذي اختاره الرافعي لنفسه ، من هذا المنطلق حاولت قراءة بعض هذا المنجز وفق قدرات محتشمة في سوق الأدب و النقد ، كل ما أملكه هو تذوقي لأسلوب هذا الكاتب و تأثيري بأفكاره و تألمي لتهميشه ، وذلك وفق الخطوات التالية : إعطاء نظرة عامة عن المرأة في العصر الحديث و ما صاحب ذلك من تناقضات و مد و جزر، ثم الوقوف على صورتها من خلال بعض القصص الواردة في كتاب "وحي القلم" و بعد ذلك الخروج بتصور ما يجب أن تكون عليه المرأة للنهوض بالأمة العربية .

2. المرأة بين الدين والحداثة:

1.2. صورة المرأة في الأديان:

لاشك أن جميع الأديان السماوية قد قدست المرأة و وضعتها في مكانة تستحقها لكن ما حدث فيها من تزييف و تلفيق جعلها في الدرك الأسفل من المجتمع، إلى أن جاء الإسلام فأعاد لها تلك الهيبة فحررها من ظلم الرجل و تحكمه ، بعد أن عانت وهي في منزلة بين الإنسانية والحيوانية من هواه و أنانيته فهو يراها متاعا يتخطف أو كرة تتلقف، لا تخرج عن كونها أداة للنسل أو مطية لشهوته و نزواته .

فالإسلام نبه إلى منزلتها وكرم وجودها ومنها ما يتناسب مع قدراتها العقلية والجسمانية وساوى بينها وبين الرجل في التكليف الديني، مراعيًا ضعفها البدني فوضع عنها التكليف المادي وجعله مسؤولية للرجل بنتا كانت أو زوجا أو أما مصداقا لقوله تعالى " ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن و فضاله في عامين أن أشكر لي و لوالديك إلى المصير " ¹

2.2. صورة المرأة في العصر الحديث:

مع بدايات القرن التاسع عشر بدأت تظهر دعوات لتحرير المرأة و سفورها و هذا بعد الاحتكاك الذي حدث بين الشرق و الغرب من خلال الاستعمار العلماني لدول الإسلام، أو من خلال حركات التنصير و الاستشراق أو من خلال رحلات الأدباء و العلماء إلى الدول الغربية ، فارتشقوا هذه الحضارة بانبهار في بريقها الزائف و المادية المتوحشة فعادوا إلى أوطانهم حاقدين أو فاقدي الهوية باسم التجديد مرة و باسم الحرية مرة أخرى ، و كانت البدايات مع رفاة الطهطاوي الذي نادى بحقوق المرأة الشرعية لكن بتأثر بطبيعة الحياة الفرنسية سنة 1873².

و بعد احتلال بريطانيا لمصر عام 1882 بدأ الترويج للأفكار التحررية النسائية بالمفهوم الغربي و كان أفضل مكان لها هو صالون الأميرة " نازلي " ³ ، و تصدر لهذا المشهد قاسم أمين بكتايبه تحرير المرأة و المرأة الجديدة سنة 1899 و 1900 على التوالي ، و دعمه في ذلك محمد عبده و سعد زغلول و كتب على منواله منصور فهمي رسالته الموسومة

بـ " حالة المرأة في التقاليد الإسلامية و تطوراتها سنة 1913 . و كانت من أوائل المتبعتات صفية زوجة سعد زغلول و هدى شعراوي و نبوية موسى و سيزا نبراوي ⁴ . فكانت أولى الخطوات هي نزع الحجاب بعد مؤتمر روما ، و مع بدايات القرن العشرين بدأت المرحلة الذهبية للحركات النسائية التحررية التي انتشرت دعواها في جميع بلاد المسلمين من خلال إنشاء الجمعيات و بعث الندوات و تحضير الملتقيات . و بالتدريج شيئا فشيئا أصبحت البيئة العربية تشهد إقبال الكثير من المسلمين على تقليد الغرب من اللباس إلى امتداد اختلاط النساء بالرجال، و السفور ، و حفلات الرقص و مقاصف اللهو و بيوت القمار و تبني اللغات الأجنبية، و تشجيع كل ما يغذي مظاهر الانحراف عن الإسلام .

و بالمقابل ظهر من تصدى مثل هذه الموجات المفترسة ففند آراء المبشرين و المستشرقين ووقف على قضية المرأة و تحريرها، و منهم الرافعي الذي حمل زاده و علمه و أمراضه أمام ساحة ملغمة بأفكار سلامة موسى⁵ الداعي إلى العامة والأدب المكشوف و الفرعونية، و طه حسين صاحب كتاب "الشعر الجاهلي"⁶ و مدارس أدبية و سياسية متشعبة، ووجد الصراع المحتدم الذي ملأ الندوات و الصحافة والإعلام يخوضه الجميع دون دراية بما يحاك للأمة من تدمير و هلاك. فدارت معارك عديدة بين الرافعي و دعاة التجديد و التغريب وألف لذلك عدة مصنفات منها وحي القلم، رسائل الأحرار.. وغيرها.

3. صورة المرأة في أدب الرافعي:

لقد تناول الرافعي المرأة من جوانب عديدة فهي الزوجة و الأم و البنت والحبيبة والأجنبية والراقصة.. وغيرها من الصور. و أنت تقرأ له و حي القلم الذي اعتمدناه في الدراسة تجده ينظر للمرأة بإنسانية فاقت إنسانية الرجل فوصفه لها دقيق مشرق عميق من منطلق صورة زوجات النبي صلى الله عليه و سلم، اللواتي يتسامين بأنوثتهن من خلال التربية على الأخلاق الفاضلة والمثل العليا وتبني صفات الخير في النفس البشرية و كشف همومها و آلامها، ومن خلال حبه لها وعشقه لجمالها و التغني بها ، كتب أروع ما كتب في النثر العربي الحديث عن فلسفة الجمال و الحب والمرأة فاخترنا لها هذه الصور :

1.3. المرأة المسكينة (بنت الباشا):

هي فتاة (بنت باشا)⁷ و زوجة فلان بك ، بنت رجل غني من أعيان تلك المدينة ، يصفها بقوله "كانت هذه المرأة وضاحة الوجه زهراء اللون كالقمر الطالع تحسبها لجمالها غذتها الملائكة بنور النهار و روحها من ضوء الكواكب "⁸ تقدم لخطبتها شاب مهذب كريم شريف ميسور الحال أحب الفتاة و أحبته فلم يكن في عين الباشا إلا ذلك الأحق، إذ لم يعرف أن تقدمه إلى ذلك العظيم كان أول معانيه أن كلمة أفندي تطاولت إلى كلمة (باشا) بالسب علناً، فأعرض عنه إعراضاً كان معناه الطرد ثم جاء (البك) خاطباً الفتاة لمجرد مهر قدره (مائة فدان) فتزوجها وأخذها إلى قصره و أضحت الفتاة حزينه الحال سقيمة الفؤاد مهمومة البال بعد زواجها مكرهه، بعد أن بيعت بأبخس الأثمان ممن لا تحب ، ومن صور ألمها وفرط حزنها ما يصفها به الكاتب بقوله: "ولج الحزن بنت الباشا فجعلت لا ترى إلا القبر ولا تتمنى إلا القبر، فوضعت الأقدار منذ ذلك في روحها معنى الطين والتراب... و أسقم لهم بنت الباشا وأذابها فنقل الأقدار إلى لحمها عمل الطين في تحليله الأجسام و إذابتها تحت البلى"⁹

و مما كان يزيد في حرقة قلبها و فرط ألمها أنها وجدت خلف القصر مجموعة بيوت مهترئة يقال لها عيش. وفيهم يقطن رجل زبال له ثلاثة أولاد يراهم أعظم مفاخره وأجل آثاره ، ولا يزال يرفع صوته متمدحاً بهم ويفرغ لذلك أسباباً كثيرة لكي يسمعه جيرانه كل ليلة مفاخر، ومنهم الفتاة بنت الباشا. و ما يستشف من خلال هذه القصة أن الرافعي يوجه دعوة اجتماعية إلى الآباء للانعقاد من أسر التقاليد في شؤون الزواج، و فيها من ذلك شيء من الحديث عن فكرة الرضا "فالمرأة للرجل نفس لنفس لا متاع لشاريه"¹⁰

و هذا ما لفت انتباه الكاتب في المجتمع العربي من طغيان المادية في الزواج وشيوع البورجوازية الكاذبة و المظاهر الزائفة و المادية المغرقة في الشهوات والملذات، ما جعل هذه المرأة تعيسة حتى تحول قصرها إلى قبر بعد أن فقدت حبها "الحب الذي هو تاريخ المرأة وليس إلا حدثاً عابراً في حياة الرجل"¹¹ هذا الرجل هو الأب الذي يقدر ابنته بالتراب و لم يكن يعلم أنه ثمن خيبتها لا سعادتها، و لإيصال الفكرة و إيضاحها تجدد الرافعي يستعين بالفلسفة لشرح أفكاره مما يعطي نصه روعة واندھاشاً "فالمهر الصحيح ليس ما تأخذه المرأة قبل زواجها ولكنه ما تجدد منه بعد أن يأخذها لبيتته... مهرها معاملتها ما يجعلها عروساً دائمة البريق والعطاء"¹².

و يتضح هذا أكثر من خلال تجسيده لمفهوم الحب الإنساني الدقيق بتحليله ووصفه لجمالها يقول: "قلها الحزين يقطع فيها و يمزق في كل لحظة مسكينة تتوجع و تتلوى تحت ضربات مهلكة من قلبها"¹³.

و بذلك فهو سريع الالتفات إلى معاني المرأة، و أعصابه قوية الانفعال بحديثها، هذه التي يقول عنها: "لا يتصل بروحها شيء إلا نبت و اخضر وأزهر كأن طبيعة الجمال خبأت في قلبها سر الربيع"¹⁴.

فالمرأة لا تكون مسكينة ولا فاقدة لروح الحياة إلا إذا فقدت قلبها باسم الحرية التي كبلت عواطفها وجعلتها سلعة تباع و تشرى و كأني بها جارية في سوق الرقيق، هذا ما وصلت إليه من ضروب بعد مشاق تحرير المرأة.

2.3 المرأة الأجنبية.

في هذا المقال يوجه الراجعي رسالة مباشرة يحذر فيها من الزواج بالمرأة الأجنبية، وهذا بعد ما شاهده ويشهده العالم العربي اليوم من اندفاع و انبهار بالمرأة الغربية إما لغرض مادي أو لحب عابر سرير يقول: "لا تتزوجوا يا إخواني المربين بأجنبية، إن أجنبية يتزوج بها مصري هي مسدس جرائم فيه ست قذائف..." و يعدد هذه الجرائم كما يلي:

- الجريمة الوطنية و تتمثل هذا في بوار المرأة المصرية
- الجريمة الأخلاقية و فيه إقحام الطباق الأجنبية عن طباعنا و فضائلنا
- الجريمة الاجتماعية بما فيها دس العروق الزائفة في دمائنا و نسلنا
- الجريمة السياسية و تحدث بالتمكين للأجنبي في بيت من بيوتنا
- الجريمة الدينية و تكون بأخذ الرجل المصري رقيقاً في المنزل الثانية أو الثالثة بعد العشيق.
- الجريمة الإنسانية والأكثر وطأة هي إثارة الشهوة عن العقل¹⁵.

ففي الزواج بالأجنبية ما فيه من الصراع الفردي و المجتمعي، فأولى دوافعه تكون علاقة عاطفية لكن "المرأة في كل امرأة و ليس العقل في كل امرأة"¹⁶ أو منافع اقتصادية أو هروب من الواقع. ونهايته خصام أو انفصال في غالب الأحيان فالزواج يبني على أسس متعددة أساسها الثقة والاحترام المتبادل والتفاهم و مجموعة من التنازلات يقدمها كلا الطرفين، لكن غالباً ما تنظر هذه الأجنبية للشرقي بعين الاحتقار، إضافة إلى الموروث الثقافي و الحضاري الذي يجعل الطرفين في صراع دائم مما يؤثر سلباً على نفسية الأطفال لأن كلاهما يسعى جاهداً لفرض عاداته و تقاليده عليهم، كما يطغى على هذا الزواج حب التملك و السيطرة و قضاء وقت أطول مع الأصدقاء و عدم إدارة شؤون المنزل و إهمال الواجبات المنزلية فضلاً عن الخيانة الزوجية التي تعد أولى أسباب الخلافات الزوجية.

و بعد استعراضه-الكاتب- لعيوب هذا الزواج يشير إلى المرأة الشرقية التي خيل للرجل أنها جاهلة خشنة جافة لكنه "أدرك أنها كالمنجم الذي تهر في ترابه وماسه في فحمة و جواهره في معدنه و أن صعوبتها من صعوبة العفة الممتنعة وأن خشونتها من خشونة الحب المعتز بنفسه وأن جفاءها من جفاء الدين المتسامي على المادة و أنها صبورة ودية وكان لها الإيثار الذي لا يفسده الطمع"¹⁷ و بالرغم من هذه المزايا التي يراها فيها الراجعي إلا أن المصري أو العربي عموماً عاف الزواج بها لجهلها وعدم تعليمها ما يجعله يفضل الأخرى الغربية وقد أشار إلى هذا البشير الإبراهيمي في قوله:

صبية تأمن بوائق الضرر
عاف الزواج بآبنة العم الأغبر
و اعلم بأن نشأنا إذا كبر
يهرجها بعد غد فيمن هجر
لأنها في رأيه مثل الحجر
و يصطفي قرينة من الغجر
لأنها قارئة مثل البشر
خذها إليك درة من الدرر¹⁸

و ما يزيد من أرق الراجعي وتبرمه ما يراه في هذه العبارة "ما علمت يا إخواني إلا من بعد أن الزوجة الغربية قد تكون مع زوجها الشرقي كالسائحة مع دليلها هيهات هيهات إنه لن يمسكها عليه و لن يكرهها على الوفاء له إلا أن تكون حثالة يزهد فيها حتى ذباب الناس..."

و هذا ما يؤكد حمار الحكيم حين يرى أنه " لم ير حتى الآن حمارا شرقيا تزوج بأتان غريبة... لكنني أعرف كثيرا من الرجال الشرقيين تزوجوا من نساء أجنبيات ولم أر بينهم من استطاع أن يعرب زوجته الغريبة وقليلون جدا الذين لم تفرنجهم أزواجهم".²⁰ و يذهب حمار الحكيم في فلسفته الداعمة لرأي الرافعي، يقول: "...ويضاف إليها بالنسبة للأجنبية أنها ترى نفسها ابنة الحاكم و هو ابن محكوم -سيدة و هو مسود- ترى في زواجها منه تنازلا منها لطبقته، فهي إذن تمن و تتدلل و ما عليه إلا أن يرضى و يتدلل و إلا حدث الخلاف و ساد الشقاق و كان بعد الزواج الطلاق".²¹

و بهذا فقد اجتمعت آراء عدة أدباء و نقاد تجاه الزواج بالأجنبية لما فيه من مضار على الجانب الفردي والاجتماعي، وهي دعوات صارخة للالتفاف حول المرأة العربية ولو كانت بعيوبها الكثيرة ونحتم هذه الإطالة بالنتيجة التي مفادها أن الرجل الشرقي حين يأتي بالأجنبية لتلوين حياته بألوان الأنتى لا يكون اختار أزهى الألوان إلا لتلوين مصائب حياته و قد يكون هناك ما يشد و لكن هذه هي القاعدة .

3.3. صورة الراقصة المتمردة:

لقد أطلق الرافعي على قصة الراقصة قوله في "الهرب ولا تحترق"²²، و هي قصة راقصة لعبوب حسناء تعرف عليها في إحدى الملاهي الصيفية الشاطئية بمدينة الإسكندرية فأعجب بها، أحبها لدرجة الإفتتان بها فيصفها...."بقوله مفاكهة مداعبة تحيي ليلها راقصة مغنية حتى إذا اعتدل الليل ليمضي وانتبه الفجر ليقبل انكفأت إلى دارها فظطت وشيها و خرجت من زينتها و خلعت روحا ولبست روحا و قالت اللهم إليك و لبيك اللهم لبيك ثم ذهبت فتوضأت و أفاضت النور عليها وقامت بين يدي ربحا تصلي"²³، لقد اختارت الرقص كرها لا طوعية و نستشف هذا من خلال الحديث الذي دار بينها و بين الكاتب، فقد قضي عليها أن تكون إحدى ثلاث راقصة، أو خادمة في البيوت أو عاملة في السوق فاختارت الأولى لحسنها و رقتها و رغم ذلك كانت عفيفة طاهرة، يقول على لسانها: "فأنا كما ترى أضطرب وجوها من الاضطراب في جذب الناس و دفعهم معا، و إذا سلمت المرأة من أن يغلبها الطمع على فكرها سلمت من أن يغلبها الرجل عن فضيلتها... و لذا أخذت نفسي ألا أطمع في شيء من أشياء الناس و سخوت عن كل ما في أيديهم فما يتكرمون علي إلا بملاكي..²⁴".

كانت تحتنق بالرقص و تنتعش بالصلاة، ما تعجب منه الرافعي أبي الممكن هذا، أبي المتراذف شرعا رقصت و صلت؟ و للإجابة عن هذا السؤال نجد أن الكاتب أحب صورة لغانية في فكره، رسمها كما يحلو له و يتمناها، هو لم يحبها هي، بل أحب جزءا من روحه وضعه الله فيها ويضيف: "فهي مخلوقة من ضلعك أقرب مكان إلى قلبك لذلك منتهى الحب أن تناديه يا "أنا" هي لم تحبك أنت هي أحبت الوطن الذي نزعته منه، فعندما ترجع إليك تشعر أنك وطنها إنه حنين الغريب كحنين القارب لحضن الشط كحنين المسافر لرائحة البيت"²⁵ حيث رآها على خلاف ما يراه الناس من امرأة متفسخة منحلة، لكن لفرط حبه لها جعل يقيم لها الأعذار والأسباب التي جعلتها بهذه الحال تجمع بين المتناقضات و تتمكن من لعب أدوار متعددة في الحياة، و السر في ذلك قلبها الذي لا تستطيع أن تستغني عنه أبدا . من خلال هذه القصة يتبين دعوى الكاتب في عدم الحكم على المرأة من ظاهرها فكم من عفيفة طاهرة فهرتها ظروفها الاجتماعية فاتجهت إلى الرقص أو الغناء مرغمة لسد فراغ بطنها .

أما إذا نظرنا إلى الرقص كمسألة ثقافية نرى انه احتل مكانة هامة في كتابات العرب القدامى والمحدثين و انقسموا بين محرم و محلل، واحتل جانبا من موضوعات معظم كتاب العربية فذكره الطهطاوي في (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) و ذكره الشدياق في (الساق على الساق) وتطرق إليه المويلحي مفصلا في (حديث عيسى بن هشام).²⁶

فوصفها و هي بالذميمة الخلق و وصفها حين رقصها بقوله: " فإذا دب في عروقها نمال الخمر جدت في لعبها و دورانها واشتدت في قفزاتها و جولاتها وتلوت كالحية في طرفها ولعبت كالسلاحفة بعنتها... فقد اشتهرت هذه البغي باتقان الرقص و التفرد به..."²⁷.

لكن الرافي أبي أن يعترف بهذه الخلاعة التي كانت بادية على حبيبته الراقصة، ورأى أنها حالات روحية ترجمت إلى تعبير جسدي، يريد أن يعطينا الصورة المثلى للمرأة التي تسامت بأنوثتها. ينظر إليها بمنظار إنساني قبل كل شيء، يتعاطف معها مبررا و متخذاً أسباباً وذرائع لذلك ليس لشيء إلا لأنه أحبها حبا صادقا فوصفها بالإنسانية العليا تارة و بالجمال البائس تارة أخرى، و مما قاله في لوعة الحب لهذه الفتاة "مسكينة ليتني أستطيع أن أبلغ ما في نفسها لأعلم ما تشكو من حظها و ما تنكر أليس موضعها هناك و لكنه القدر " 28.

كانت على عين الجميع راقصة تغني و كانت بعينه عابدة تسبح و تصلي، كان الناس ينظرون إلى الراقصة و هي تفتن في إغراء الرجال بالنغمة و الحركة الفاتنة و كان الرافي ينظر إلى أعماق نفسه إلى صورة أخرى رسمها من خياله فقامت حياله لتريه ما لا يراه الناس .

و هذا الوجه آخر للرافي الرجل العاشق الذي إذا أحب غشي عليه و غطى على عينه . لقد حاول تحليل نفسية الراقصة و الصراع الذي تعيشه و الذي لا يحكمه منطق إذ غلبت المشاعر في رؤيته للمرأة فلم يكن عقلانيا في حديثه بل وجدانيا يشعره بألمه من قوة بعض العبارات " وهي في رقصها إنما تفسر بحركات أعضائها أشواق الحياة وأفراحها وأحزانها، وتزيد في لغة الطبيعة لغة جسم المرأة.. على وجهها نور الجمال مع نور الوضوء متحرزة، ممتعة. " 29

و لا نجد أدق من وصفنا له وصفه لرجل يرضى نفسه أن يسرق ليغتني فإذا أعطى نفسه رهاها فهو اللص، و كالتاجر في إرضاء طمعه و هو الغاش، و كالجندي في إرضاء جنه و هو الخائن، و كالشاب في إرضاء رذيلته وهو الفاسق و هلم جرا، فأى فلسفة هذه تجعل العاشق المجنون فارغا من العقل متناسيا مذهبه في الحياة مجسدا صورة أخرى لصور المرأة يضيف معلنا حيرته واعتلاله :

إذا شئت يوما أن أسوأ حبيبي

و يأخذ لي في الكبرياء نصيبي

مريض و قلب بعد ذاك طيبي

و و الله إن الحب شر عيوبي 30

و كم حار عشاق و لا مثل حيرتي

وهل لي قلب غير قلبي يسوؤه

ألا ليت لي قلبين قلب بحبه

فو الله إن الحب خير محاسني

و قد كان البيت الأخير كافيا لمقاربة ما تم قوله سابقا .

4.3. صورة الأم المفقودة:

إذا تكلمنا عن مذهب الرافي في الاجتماع، سوف نقف قليلا عند تلك العلاقة الحميمة بين الرافي و المرأة في أجل صورة لها وهي "الأم" فنعجب من أن صاحب البلاغة النبوية وإعجاز القرآن وأسرار الإعجاز، و الذي اتصلت روحه بالحسن البصري و الغزالي يملك هذا الدفق العالي من الحس المرهف و الشعور بالآخر، فكأنني به هنا يلبس هذه المرأة و تلبسه هي جزء من كيانه و هو قطعة في قلبها، تلك هي كلمة السر في الأم التي وحدها تتمكن من جمع المتناقضات و لعب أدوار متعددة في الحياة.

فأفرد لها الكاتب عدة مقالات وقصص منها " موت أم " 31 و تعتبر نص بين المقال والقصة و هو ما أطلق عليه السرد المهجن 32، والذي لا يلتزم بالقالب القصصي المتعارف عليه فنيا . و قد أولى لها الكاتب عناية خاصة بالتحليل و الوصف فالأم أصل كل شيء و ما يجتمع إليه غيره و الأمومة عاطفة وغريزة زرعت في الأنثى النسوية حاملة طاقة هائلة من الرحمة و الشفقة، و قد أوصى الدين الإسلامي بالأم وجعلها سابقة للرجل في منزلتها من حيث الحمل و الإرضاع والرعاية، و رغم ذلك فإن صورة الأم الرؤوم حاضرة قبل الإسلام في الشعر الجاهلي فهذا طفيل الغنوي يقول:

لك الأم منا في الوطن والأب

يقولون لما جمعوا العدو شملهم

و قالت جليلة :

الأم ذي ما تفتلي

تحمل العين كما تحمل

و قال عروة بن الورد:

فإني و إياكم كذي الأم أرهنت له ماء عينها تفدي و تحمل³³

و حافظت على صورتها في باقي العصور الإسلامية شعرا و نثرا، لكن يستحيل على أي الإنسان مهما بلغ من البلاغة و البيان أن يصف هذا المخلوق المتمتع بالإيثار و التضحية يقول: " و أكمل النساء عندي هي تلك التي تنظر إلى الدنيا بعين متألثة بنور الإيمان تقر في كل شيء معناه السماوي فتؤمن بأحزانها و أفراحها معا و تأخذ ما تعطي من يد خالقها رحمة معروفة أو رحمة مجهولة... و معناها المعبد القدسي، و تصوير الأم و معناها التكملة الإلهية لصغارها و زوجها و نفسها³⁴

فهي إنسان دائم العطاء، جماله مثالي يذيع من الروح و يتزين بمدد لا يتوقف، الأم هي ذات الجمال اليقظ الذي لا يخبو و لا ينام، إلا إذا ضمته للحدود فيزرع في نفس معاشريه ألما رهيبا لا تستطيع الأيام أن تمحو ذكره، هذه الذكرى الأليمة التي استيقظت في نفس الرافعي منذ وفاة هذه الأم و حزن ولدها عليها فذاثته لم تأب إلا الظهور في شخصية هذا الولد المكسور المهزوم بوفاة والدته يقول: " أحس فلا ريب أنه قد ضاع في الوجود لأن الوجود كان أمه " ³⁵

فمن قداستها أتحا تدفع بصحتها و بدنها مقابل أن ينمو أطفالها بسلام حتى إذا رحلت "انتهت أيها الطفل المسكين أيامك من الأم هذه الأيام السعيدة التي كنت تعرف الغد فيها قبل أن يأتي معرفتك أمسك الذي مضى... الأم يا إلهي أي صغير على الأرض يجد كفايته من الروح إلا في الأم " ³⁶ .

و ليس أبلغ من هذه الصورة في نقل معاناة طفل فقد أمه ورجل فقد أمه أيضا. ورغم توالي السنين و الأحقاب لا زال في قلب الرافعي فراغ لم يشغله أحد قط بعد وفاة أمه، لذلك جاء تعبيره أصدق ما يكون لمعايشته التجربة فهي مصدر القوة والإيمان و الهدوء والسكينة، "ما خلقت إلا لتكون للرجل مادة الفضيلة و الصبر والإيمان " ³⁷

فصار كل ما فوق التراب تراب، صار بيتها قبرا و صار قبرها بيتا، فهي شجرة غرست في عود ضعيف تداولت عليه الفصول و آثارها لازالت متمكنة بجذورها و فروعها تمد فرعها حتى تكتمل شجرة بعد أن تنقضي عدد أيامها ليالي و أياما " كما كانت تلك المسكينة في الخامسة والعشرين من سنها أما قلبها في الثمانين أو فوق ذلك، هي في سن الشباب و هو متهدم في سن الموت " ³⁸ لكأن الرافعي يصف امرأة كان بجوارها يتألم لألمها، يكبر معها و يصغر و ليست هذه الأحاسيس منبئة إلا من رجل فقد فأحس معنى الفقد و هو صغير و لا زالت معاملته ترسخ وتتجدد مع كل جنازة أم يمشي بها .

و مع أنه لم يتعرض لدور الأم في حياته، إلا من خلال الوجد الذي تركته بصمات فقدها إلا أنه استطاع أن يضع لتلك القداسة الهائلة لصورة الأم حين فقدها و ذلك بتجسيد عواطف طفلها الصغير الذي " لبسته المسكينة لأنه صار وحده في المكان كما هو وحده في الزمان " ³⁹

هذه هي بعض تجليات المرأة عند الرافعي، فمن البنت المسكينة الواقعة تحت سلطة المادية الاجتماعية إلى القاهرة المقهورة التي جنى عليها المجتمع، فكانت راقصة. إلى الأجنبية المندسة في عوالمنا إلى الأم بأكمل معانيها. هذا بعض ما كانت عليه المرأة، فكيف يجب أن تكون؟

4. خاتمة:

من خلال ما تقدم وقفنا على النقاط التالية :

رأى كثير من النقاد و الأدباء أن المرأة لم تكن قبل عصر النهضة إنسانة كاملة الإنسانية بل اعتبرت إطارا لموضوعات أخرى، و لم يشهد مستواها ارتفاعا إلا عقب النهضة لكنها ازدادت سوء و اضمحلالا وظلما في الحقيقة.

و الصور التي تعرضنا لها كافية للرد على مثل هؤلاء. فهي إما بنت مسكينة واقعة تحت العبودية، سلطة أبوية لا تعرف للمرأة معنى سوى أنها بضاعة يجب أن تباع بأغلى الأثمان و في ذلك قتل لها و هتك لمعاني الإنسانية فيها.

و إما الراقصة تستعرض مفاتها لتنال قوتها ، و أي ظلم للبشرية ذاك الذي يجعل المرأة أمة كما قالت هند بنت عتبة : أو تأكل الحرة من ثديها ، فحتى الجاهليون الأحرار رفضوا ذلك واعتبروه إذلالا و استعبادا ، و هي إما أجنبية دست في عولمنا لإخضاع الرجل و السيطرة عليه و غلبة حضارة على حضارة أخرى . و إما أم مريضة هدها الألم فماتت في سن مبكرة مخلقة أطفالا أيتام رسموا معنى الفقد و الضياع .

و جاء كل هذا عبر مقالات قصصية بأسلوب سردي راقى ، فطالما كانت القصة الإسلامية وسيلة من وسائل التربية و التسامي بالأخلاق من خلال ما تعرضه من صور شتى تتحدث عن شخصية المرأة ، زوجة و أما و بنتا في سلبياتها و إيجابياتها من خلال الحوادث و الحوار الذي يترك أثرا نفسيا في أذهان القراء .

أما ما يجب أن تكون عليه المرأة ، فهو أخلاق المرأة المسلمة ، اقتداء بزوجات النبي صلى الله عليه و سلم ففيهن عبر لكل مواقف الحياة ، تربية أو اجتماعية أو دينية أو حتى سياسية فكّن رمزا للعفاف و الكفاف ، و لنا مثال ذلك في كل العصور الذهبية الإسلامية ، فمن هند بنت عتبة إلى خديجة رضي الله عنها إلى عائشة و أسماء رضي الله عنهما إلى سكينه بنت الحسين إلى خولة بنت الأزور إلى بطلات و جميلات الجزائر .

5. قائمة المراجع:

- 1- سورة لقمان آية 14
- 2- الروماني، المسلمة بين الغزو و التغريب ، دار الكتاب العربي ط 2، ص 56.
- 3- نبيل راغب ، أزمة الأدب النسوي ، دار العلم ط 1، 1986، ص 216-217.
- 4- المرجع نفسه ، ص 218.
- 5 - مصطفى صادق الرافعي ، تحت راية القرآن ، المعركة بين القديم و الجديد ، مؤسسة هنداوي 2004 ، ص 20-25.
- 6 - المرجع نفسه ص 26
- 7- مصطفى صادق الرافعي ، وحي القلم ، دار الكتاب العربي 2014، ص 68.
- 8 - نفسه ص 71
- 9- نفسه ص 68
- 10- حديث نبوي شريف
- 11- مصطفى صادق الرافعي ، وحي القلم ، م، س، ص 69 .
- 12- نفسه ص 15
- 13- نفسه ص 68
- 14- نفسه ص 71
- 15- نفسه ص 182
- 16- نفسه ص 189
- 17- نفسه ص 186
- 18- نفسه ص 65
- 19- نقلا عن عبد الملك مرتاض ، الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير و التأثير ، دارالحدائق مع ديوان المطبوعات الجامعية ، ط 1، 1982، ص 84.
- 20- مصطفى صادق الرافعي ، وحي القلم ، م، س، ص 218.
- 21 - نفسه ص 40
- 22- نفسه ص 136
- 23- نفسه ص 136

- 24- نفسه ص 137
- 25- نفسه ص 140
- 26- سامي قدوح، منابت القصص في الأدب العربي الحديث، دار المؤلف للنشر و التوزيع، ص 52.
- 27- نفسه، حديث عيسى بن هشام- ص 169
- 28- مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، م، س، ص، 138.
- 29- نفسه ص 236
- 30- مصطفى صادق الرافعي، أوراق الورد رسالة التمزيق، دار الكتاب الحديث، ص 102.
- 31- مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، م، س، ص، 184.
- 32- نفسه ص 184.
- 33- محمد رجب السامرائي، صورة الأم في ذاكرة الشعراء البيان ، 2010، ع 34، ص 23-25
- 34- مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، م، س، ص، 101.
- 35- نفسه ص 103
- 36- نفسه ص 104
- 37- نفسه ص 101
- 38- نفسه ص 103
- 39- نفسه ص 103